البائس الخالد

محمد حافظ ابراهيم

على ذكر شوقى

ولما دعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر
فان ينقطع عنك الرجاء فانه سيبقى عليك الحزن مابقى الدهر

رووا أن سيدة ذهبت لتوديع ولدها ، وقد اعتزم عنها اغترابا . فلما تحرك القطار ودعته بأبلغ قصيدة شعرية عبرت بها عن آلامها وتباريحها القاتلة ...

على أنها لم تنظم فى هذه القصيدة الرائعة بيتا واحدا . ولم تنطق فيها بكلمة واحدة ... ولكن قصيدتها كانت — رغم ذلك — لاتقل عن أبلغ قصيدة نظمها أبو الطيب أو فيلسوف « المعرة » أبو العلاء — ولم تكن قصيدتها تلك إلا زفرة زفرتها . وعبرة ترقرقت فى مقلتيها ..

وحدث أحد خطباء مصر فى مطلع كلمة رثائية فقال :

إن أبلغ مايرثى ويذكر فى الميت دمعة كريمة تهدى له خفية . لا كلمة منمقة تبذل للناس جهرة . فتلك للميت العزيز وحده ، وهذه للأحياء من بعده ..

... وهأنذا اليوم لدى الذكرى لسمى مودعى لاأستطيع أن أذكره بهذه القصيدة الصامتة التى تتلخص فى زفرة حارة ودمعة مترقرقة وذهول يستولى على النفس حتى ليكاد ينسيها كل واجب.

أجل ..

وهل أملك أمام جبروت الذكرى وسلطانها سوى مايملكه حزين موجع الكبد منقطع القلب منفطر الضلوع ..

هل أملك لدى لوعة النوى ولذعة الجوى إلا أن أترك النفس وحسراتها . والعين وعبراتها .

هل أملك وقد حالت الأقدار بينى وبين من أحب — إلا ما يرجعه المحزون من الأنين وما يردده المحزون من الذكرى والحنين ..

ومن ذا الذى تعاوده الذكرى لذلك الخبر الفاجع . على تقادم العهد . دون أن يساوره الأسى وتغلبه لواعج الشوق ؟

وأى خطب فادح تقذى به العيون مثل خطب حافظ وأى حادث جلل تجرى له

الشئون مثل حادثه ؟

. . بل أى رزء تهلع له النفوس مثل رزئه وأى مصاب تأسى عليه القلوب مثل مصابه . . ؟

وأى جزع وأية رهبة كأن تنظر أمه فاذا لسانها الناطق قد حبس . وإذا بلبلها الغريد قد خرس . .

وإذا قلبها الخافق لم يعد يخفق . ولسانها الناطق لم يعد ينطق !!

بل وطبيبها الذى لديه لكل جرح بلسم من سحر البيان ولكل كلم مرهم من عذب الكلام يداوى به فتونا شتى من الآلام والأشجان . .

بل شاعرها المسيطر على نفوسها وأفئدتها الخبير بعللها وآفاتها . الناقد بحدة ذكائه ووافر احساسه إلى أعماق أرواحها . المطلع على مكنونات ضمائرها ! . .

لقد كان حافظ رحمه الله واسع العلم والخبرة بالقومية عارفا بفنونها وأساليبها متضلعا فى تواريخها بصيرا باسرارها . .

استطاع — وهو الشاعر الوحيد فى ذلك — تصوير النزعات القومية والاتجاهات الاجتماعية

ولم تفجع مصر فيه كابن من أبر أبنائها فقط . وانما فجعت فيه — الى جانب ذلك . كامام من أئمة اللغة العربية أورثها مجدا طارفا على مجد تالد . وزادها فيضا خالدا على فيض خالد . بل طالما كان من الداعين إلى الأخذ بناصرها . والمدافعين عن كيانها الرافعين لمقامها بين اللغات بما استنبطوه من كنوز ألفاظها ومترادفاتها وما كشفوه عنها من سمات جمالها وما دل على سعتها .

وكما فجعت فيه وطنيا ولغويا قد فجعت فيه إماما فى نبالة الأخلاق . عرفه عشراؤه حلو المعاشرة . ظريف المحاضرة . صافى الجوهر . كريم الشمائل . حر الخلال . متجافيا عن مقاعد الكبر . نائيا عن مذاهب العجب . ندى الكف طاهر القلب . قوى الشكيمة ناصع السريرة . وديعا دون تبذل ورفيعا دون تصنع .

كما فجعت فيه شاعرا مفطور السجية . ناصع الأدبية . ذا بديهة فياضة . وملكة متمكنة . ولوذعية متقدة . له فى كل ميدان جولة . وبصدر كل حفل صولة . لا تلقى بمجلسه أنى تنقل وأنى تحدث إلا ماشئت من شذى عبق . وأدب نضر وروح عذبة ودنيا مرحة بسامة فياضة بالبشر تضاحة بالوفاء .

وأجل وأعظم من ألفاظه العذبة . ودنياه المرحة . ما كانت تنطوى عليه كلماته من سر روحه الكبير من حرارة الوجدان ووافر الاحساس . ونار العاطفة والشعور . .

حدث عنه صديقه الأستاذ البشرى فى كتابه الخالد « فى المرآة » يصف أدبه وينعت حضرته ، قال :

(. . . شاعر خفيف الظل ، عذب الروح . حلو الحديث . حاضر البديهة . رائع النكتة بديع المحاضرة ، إذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله . وأشرق نرجسه وتألق ورده ، فأذكرك طلعة الحب ، تانك عيناه وهذا خده . . . الخ .

ولم أر قط رجلا أسرع منه حفظا ولا أثبت حافظة حتى لقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثبا حتى يأتى على غايتها ، واذا هو قد استظهر أكثر جملها أو أبياتها ان كانت قصيدا واذا هى ثابتة على قلبه

كما كتب عنه رحمه الله أيضا تحت عنوان (حافظ ابراهيم: ناحية من أثره فى الأدب)

« رزق حافظ . رحمه الله . الى الطبع وإدراك الملكة ، خلالا ثلاثا لا تستوى لكثير . سلامة الذوق . ورهافة الحس ، وقوة الحافظة . ونطاقة اللسان .

ولقد بلغ من الثانية موضعاً عجباً حتى لقد كان يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير . أو المقالة لكاتب مبرز . فاذا عيناه تجمزان فيها جزا حتى يأتى على غايتها . . . . كما يروى لنا عنه رحمه الله أنه كان أجود من (الريح المرسلة) لا يبالى من صرف آخر دانق بحويه كيسه حتى لقد ذهب فقيرا معدما يمتلك من متاع الحياة أثاث المنزل »

. . . ولم تكن الفجيعة فيه بمقتصرة على الأمة المصرية وحدها وإنما كانت فجيعة العالم العربى برمته لم تترك قلباً إلا أدمته ولا فؤاداً إلا سلبته . فلم يكن هناك من يعزى أو يعزى . بل كان الكل مكلوما محزونا .

نعته مصر فبكته سوريا وحزنت عليه العراق . ورددت النحيب لفقده اليمن وتونس وسيلان . وما أحال لبنان قد لقى رزءا مثل رزئه فيه . أو حزن حزنا كحزنه عليه . فكم له من مئات محبين . وألوف بشعره معجبين . .

أفسح الله له فى جواره . ووهبنا على الرزء فيه عزاء ، وكيف العزاء عمن كان مل الدنيا ؟

الواله الحزين

احمد عبد الله طعيمه

مدرس بمدرسة نزلة حنا